الفصل السادس

المدى الذي يبلغه الساحر بسحره

ذكرنا من قبل أن الراجح من أقوال أهل العلم أنَّ للسحر حقيقة، والذين ذهبوا هذا المذهب اختلفوا في المدى الذي يبلغه سحر الساحر، فذهب فريق إلى أنَّ السحر له تأثير على المزاج، ويؤثر في الأمراض والإيذاء، ولكنه لا يتعدى هذا إلى تغيير حقائق الأشياء، وذهب آخرون إلى أنَّ الساحر يبلغ بسحره ـ إذا كان قويا ـ درجة تغيير الحقائق وتبديلها.

يقول التهانوي في هذه المسألة:

«أما جمهور العلماء فيتفقون على أنَّ للسحر حقيقة، وفي ظاهر الكتاب والسنة المشهورة دلالة على ذلك، ولكنهم يختلفون في هذا الأمر، وهو أنه إذا كان له تأثير في تغيير المزاج فقط فهو نوع من المرض أو ينتهي تأثيره مع الحالة، يعني انقلاب حقيقة الشيء بحقيقة أخرى، كما يصير الإنسان جماداً والعكس، ويصير الإنسان حماراً والكبش أسداً والعكس. والجمهور يقول بهذا»[1].

ومن الذين تعرضوا لهذه المسألة القرافي في (فروقه)، وقد قال فيها:

«قال الأستاذ أبوإسحاق: وقد يقع به التغيير والضنى، وربما أتلف وأوجب الحبَّ والبغض والبله، وفيه أدوية مثل المرائر والأكباد والأدمغة، فهذا يجوز عادة. وأما

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ١٥٦

طلوع الزرع في الحال أو نقل الأمتعة والقتل على الفور والعمى والصمم ونحوه وعلم الغيب فممتنع، وإلا لم يأمن أحد على نفسه عند العداوة، وقد وقع القتل والعناد من السحرة، ولم يبلغ فيها أحد هذا المبلغ، وقد وصل القبط فيه إلى الغاية، وقطع فرعون أيديهم وأرجلهم، ولم يتمكنوا من الدفع عن أنفسهم والتغيب والهروب.

وحكى ابن الجويني أنَّ أكثر علمائنا جوزوا أن يستدقّ جسم الساحر حتى يلج في الكوة، ويجري على خيط مستدقٍّ، ويطير في الهواء، ويقتل غيره.

قال القاضي: ولا يقع فيه إلا ما هو مقدور للبشر، وأجمعت الأمة على أنه لا يصل إلى إحياء الموتى وإبراء الأكمة، وفلق البحر، وإنطاق البهائم.

قلت: ووصوله إلى القتل، وتغيير الخلق، ونقل الإنسان إلى صورة البهائم هو الصحيح المنقول عنهم»[1].

ويقول الرازي: «جوز أهل السنة أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حمارا، والحمار إنسانا، إلا أنهم قالوا: إنَّ الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة، وكلمات معينة، فأما أن يكون المؤثر في ذلك الفلك والنجوم فلا»[2].

ونقل ابن كثير كلام الرازي الذي ذكرناه وسكت عنه[3].

وعرض القرطبي لهذه المسألة فقال:

«قال علماؤنا: لا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو، إلى غير ذلك مما قام

---

(١) الفروق: ٤/١٣٩

(٢) قصة السحر: ص ٤٧

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٢٥٣

الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد.

قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستدقّ جسم الساحر حتى يتولج في الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة، والجري على خيط مستدق، والطيران في الهواء، والمشي على الماء، وركوب كلب وغير ذلك»[1].

ولكنه يرى أنَّ الساحر لا يبلغ بسحره إلى درجة قلب حقائق الأشياء، كأن يجعل الجماد حيوانا، والإنسان حمارا، وعكسه.

يقول القرطبي: «أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الأموات وإنطاق العجماء، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام، فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون، ولا يفعله الله عند إرادة الساحر»[2].

وقال الراغب في كلامه على النوع الثالث من أنواع السحر: «والثالث: ما يذهب إليه الأغتام، وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارا، ولا حقيقة لذلك عند المحصِّلين»[3].

ويقول ابن حجر العسقلاني: «الذين قالوا: إنَّ له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعا من الأمراض، أو هو ينتهي إلى الإحالة بحيث يُصَيِّر الجماد حيوانا وعكسه؟ فالذي عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني، فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلَّم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإنَّ كثيرا ممن يَدَّعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه»[4].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٤٧

(٢) تفسير القرطبي: ٢/٤٧

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ص ٢٢٦

(٤) فتح الباري: ١٠/٣٢٢

وإذا أنت تأملت في هذه النقول التي سقناها تبين لك أنَّ في المسألة اضطرابا كبيرا، وسبب هذا الاضطراب هو عدم معرفة حقيقة السحر عند كثير من الباحثين فيه.

إنَّ السحر الحقيقي هو الذي يستعين فيه الساحر بالشيطان، وقد أخبرنا ربنا الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علما أنَّ الشياطين هم الذين يعلِّمون الناس السحر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[1].

وقد تواتر النقل عمن بحث في أحوال السحر والسحرة في إثبات العلاقة بين السحرة والشياطين، فالسحرة يتقربون إلى الشياطين بما يحبونه من العقائد الفاسدة، والأعمال الضالة، وأكل المحرمات والخبائث، فتعينهم الشياطين على مقاصدهم، ولذا فإن الحذَّاق من علمائنا عرَّفوا السحر بأنَّه: عمل تُقُرب فيه إلى الشيطان وبمعونه منه، كلّ ذلك الأمر كينونة للسحر، ومن السحر الأخذة التي تأخذ العين، حتى يظنَّ أنَّ الأمر كما يرى، وليس الأصل على مايرى[2].

ويقول الألوسي: «المراد بالسحر: أمر غريب يشبه الخارق، وليس به، إذ يجرى فيه التعلم، ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح، قولا كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره، وعملا كعبادة الكواكب، والتزام الجناية، وسائر الفسوق، واعتقادا كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه، وذلك لا يستتب إلا بما يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط التضام والتعاون، فكما أنَّ الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة

---

(١) سورة البقرة: ١٠٢.
(٢) لسان العرب: ٢/١٠٦.

قولا وفعلا واعتقادا، وبهذا يتميز الساحر عن النبي والولي»[1].

وقال الغزالي في تعريفه فيما نقله عنه صديق حسن خان: «السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص هيكلا على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقتا مخصوصاً من المطالع، وتقترن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع يتوصل بها إلى الاستعانة بالشياطين، وتحصل من مجموع ذلك ـ بحكم إجراءات العادة ـ أحوال غريبة في الشخص المسحور»[2].

ويقول الراغب في كلامه على السحر الذي يستعين فيه الساحر بالشياطين «والثاني: استجلاب معاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[3]. وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[4]»[5].

وليس هذا الفهم مقصورا على العلماء المسلمين، بل كثير من الباحثين من غير المسلمين توصل إلى هذه النتيجة.

فقد عرف قانون المستعمرات الانجليزية في أمريكيا (قبل الثورة وتوحيد الولايات) السحر بأنه «التعاطف والتعاون مع الشيطان أو التحدث معه، أو اللعب معه، وطلب المعونة والمشورة منه»[6].

---

(١) روح المعاني: ١/٣٣٨.
(٢) الدين الخالص: ٢/٣٢٤.
(٣) سورة الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٤) سورة البقرة: ١٠٢.
(٥) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ص ٢٢٦
(٦) كتاب (اللعب مع الشيطان) لـ (جون ديموس) البريطاني الجنسية. انظر مقالا في ملحق جريدة الوطن الكويتية بتاريخ ١٩٨٢/٧/٢١.

وهذا الذي ذكره العلماء من أنّ السحر إنما يتم بعبادة الشيطان والتزلف إليه بالشرك والذنوب والمعاصي هو الحقُّ الذي دلَّت عليه النصوص. فَهَمُّ الشيطان الأكبر صرف العباد عن عبادة الله وحده، وإيقاعهم في الشرك الذي يجلب لهم النار وغضب الجبار، والشيطان ينوع طرق الضلال التي يضلّ بها العباد، ولكن هذه الطرق جميعها تصب في النهاية في مصبّ واحد هو الإشراك الذي يحقُّ على الناس غضب الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والشيطان يضلُّ الإنسان بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب فإنَّه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور، ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان، وكذلك عبَّاد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به، أو ظنَّ أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد»[1].

ويقول في موضع آخر: «والشياطين تدخل في الأصنام وتعينهم في بعض مطالبهم كما تعين عباد الشمس والقمر والكواكب والنجوم إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها، من تسبيح لها، ولباس وبخور وغير ذلك، فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب، وقد تقضي بعض حوائجهم، إمّا قتل بعض أعدائهم أو إمراضه وإما جلب بعض من يهوونه، وإمّا بإحضار بعض المال»[2].

والشيطان خبيث، ولذلك يحب الخبث والشر والفاسد ويتلذذ به، ويحب الذين يتصفون بهذا الخبث، فإذا تقرب إليه البشر بالشر والفساد أعانهم وحقق

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/٢٩٢.

(٢) إيضاح الدلالة: ص ١٢٦.

لهم بعض أغراضهم، ومن اضلال الشياطين تنزله على بعض أهل الشر والفساد يزعم أنه روح من الأرواح فيظنُّ هؤلاء المساكين أنَّ الذي جاءه ملك، وإنما الذي جاءه شيطان.

وقد كان للأسود العنسي الذي ادعى النبوة شياطين يخبرونه ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم على قتله زوجته لما تبين لها كفره. وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور[1].

وأول من ادعى في الإسلام أنَّ الأرواح تنزل عليه وتخاطبه المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾[2].

وقيل لآخر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[3].

وهذه هي الأرواح التي كانت تتنزل عل ابن عربي صاحب الفتوحات وهي التي ألقت له كتاب الفتوحات[4].

فإذا ثبت أنَّ السحر لا يتم إلا بعبادة الساحر للشيطان، ومعونة الشيطان للساحر، وجب علينا أن نتعرف على قدرات الشياطين لنعرف المدى الذي يمكن للساحر أن يبلغه بسحره.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/٢٨٤.
(٢) سورة الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٣) سورة الأنعام: ١٢١.
(٤) مجموع الفتاوى: ١١/٢٣٨.

وكي يحيط الباحث علما بقدرات عالم الجن والشياطين عليه أن يرجع إلى النصوص من الكتاب والسنة التي تعرفنا بهذا العالم وتعرفنا على القدرات التي وهبها الله لهذه المخلوقات.

وقد كنت ألفت كتابا موضوعه عالم الجنّ والشياطين، وذكرت فيه القدرات التي يتصف بها هذا العالم، فالجن مخلوقات عاقلة خلقها الله كما خلق الجن لعبادته وطاعته، ومنهم الكافر ومنهم المؤمن، ولديهم القدرة على رؤيتنا، ولم نعط القدرة على رؤيتهم، ولديهم القدرة على الانتقال السريع في أقطار الأرض، والصعود في أجواز الفضاء، وهم في انتقالهم يستطيعون حمل الأثقال العظيمة، كما أنَّ لديهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، فقد يتشكلون في صورة بشر أو حيوان أو أفعى ونحو ذلك.

وقد سخرهم الله لنبيه سليمان فكانوا يبنون له القصور الشاهقة، ويصنعون له التماثيل البديعة، والصحاف الكبيرة، والقدور الراسية، ويغوصون في أعماق البحار لاستخراج اللالىء، فإذا خالف منهم مخالف وضعه في الأسر وصفده بالأصفاد.

ويستطيع الشيطان أن يضر بعض العباد، وقد حاول عفريت أن يؤذي الرسول ﷺ فردَّ الله كيده في نحره، وأمكن الله رسوله منه.

وأخبرنا رسولنا ﷺ أنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» كما أنَّ لدى الشياطين كثيرا من العلم، فهم يعلمون الكثير عن تكوين الإنسان وما يمرضه، وما يصلحه، كما يعلمون الكثير عن خصائص العناصر والمخلوقات، وقد يكون علمهم في هذا متقدما عن علم البشر.

ولكن الشياطين لا يستطيعون أن يأتوا بمثل المعجزات التي ينزلها الله على رسله وأنبيائه قال تعالى في حق القرآن: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[1]. فهذا نصٌّ صريح يدلك على عدم قدرتهم على محاكات القرآن والإتيان بشيء يماثله، ولذلك تحدى الله الجن والإنس بالاتيان بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2].

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل في الرؤيا بمثل صورة الرسول ﷺ.

كما أنَّ الشياطين لا تستطيع أن تتجاوز حدودا معينة في الفضاء ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[3].

وأخبرنا الرسول ﷺ أنَّ الشيطان لا يستطيع أن يفتح بابا مغلقا، ولا يكشف آنية خمرّت، ولا يحل قِرْبةً أوكيت.

ومن الأمور التي لا تبلغها قدرة الشيطان ما نصَّ الله عليه في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٠.
(٢) سورة الإسراء: ٨٨.
(٣) سورة الرحمن: ٣٣.
(٤) سورة الحج: ٧٤.

والآية دليل واضح الدلالة على عجز كل من عُبِدَ من دون الله عن الخلق والأحياء، ولو كان هذا المخلوق حقيراً مثل الذباب، ولا شك أنَّ الجنَّ من الآلهة الباطلة التي عبدت من دون الله[1].

فإذا عرفت ما يستطيعه الشيطان وما لا يستطيعه تبين لك الحقُّ في هذه المسألة، فالشيطان إمّا بنفسه أو بما لديه من علوم قد يُسَلَّط على بعض الناس بالإمراض والإسقام وإزالة العقل وتعويج العضو، كما يستطيع أن يحمل الساحر ويرفعه في الهواء، ويخرج به من الأماكن الضيقة، ويجري به على خيط مستدق، ويمكنه أن يحمل الجراد والقمل، ويسقطه على بعض القرى والبلاد.

كما يستطيع الجنُّ معالجة بعض الأمراض كما يعالجها البشر، كمعالجة الصمم أو الصلع أو أمراض القلوب والأمعاء ونحو ذلك. وليس مما تستطيعه الشياطين إحياء الموتى، وانطاق العجماء، وتحويل الإنسان حمارا، والحمار إنسانا، ولا يستطيع الشيطان الاتيان بمثل معجزات الأنبياء، فلا يستطيع شقَّ القمر، ولا فلق البحر، ولا اختراع طعام، ولا اخراج ناقة من صخر، فالشياطين أقلُّ وأذلُّ من أن يستطيعوا مثل هذا، والذين يجوزون ذلك ليس معهم دليل من عقل أو نقل.

ولكن هنا شبهة لابدَّ من إيضاحها، وهي أنَّ بعض الناس يزعمون أنهم رأوا الساحر يحيى ميتا، وآخر ينطق عجماء، وآخر يحول إنساناً إلى حمار، وآخر يمسك الحيات ويلعب بها.

وقد ذكرت في سحر التخييل فيما سبق قصصا كثيرة تصلح نماذج لهذا الذي نتحدث عنه هنا.

---

(١) إذا أردت التوسع في معرفة قدرات الجن والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة فارجع إلى كتابنا «عالم الجن والشياطين».

ومن هذا القبيل ما وقع من سحرة فرعون، فقد سحروا أعين الناس، فخيل للرائين أنَّ الحبال والعصي تحولت إلى أفاعي تسعى.

ويذكر ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد في إحدى الجزر التي تدعى بجزيرة (ذيبة المهل) في حفل أقيم على شرفه طائفة يُدْعَون بالفقراء، يدخلون النار، ويطؤونها بأقدامهم، ومنهم من كان يأكلها كالحلوى[1].

وقد نقل صديق حسن خان عن ابن بطوطة هذه الحادثة، وعقب على ذلك قائلا: «ويقال لهؤلاء القوم - في اصطلاحهم وعرفهم - الأبدال، منهم في زماننا هذا في بلدة (قنوج) من بلاد الهند، ثم انقرضوا»[2].

ومن غرائب السحر سحر الحيات والثعابين، يقول القرافي: «رأيت بعض السحرة يسحر الحيات العظام، فتقبل إليه وتموت بين يديه ساعة، ثم تفيق، ثم يعاود ذلك الكلام فيعود حالها كذلك أبدا، وكان في ذلك يقول: موسى بعصاه، محمد بفرقانه، يا معلم الصغار علمني كيف آخذ الحية والحوية، وكانت له قوة نفس يحصل منها مع هذه الكلمات هذا الأثر»[3].

ويقول صاحب (الموسوعة العربية الميسرة) «عُرِف فنُّ سحر الحيات والثعابين واصطيادها والسيطرة عليها في بلاد الشرق منذ عصور موغلة في القدم، سواء باعتباره وسيلة من وسائل التسلية أو طريقة لابعاد الزواحف الخطيرة عن الانسان والماشية. ويستطيع الحواة الهنود السيطرة على الكوبرا، وذلك بعزف الموسيقى الايقاعية المتسقة، كما يتمُّ سحر الحية السامة بوساطة حركات ايقاعية تنبعث من جسم لامع. وفي بعض الأحيان ينزع الحواة أنياب الحية، ولكنهم في

---

(١) رحلة ابن بطوطة: ٢/٦٦٥.
(٢) الدين الخالص: ٣/٥٨١.
(٣) الفروق: ١/١٤١.

كثير من الأحيان ـ حرصا على سلامتهم ـ يعتمدون على قوتهم في السحر الذي يتوارثونه عن أسلافهم[1].

إنَّ كثيراً من الناس يُكَذِّبون بأمثال هذه القصص والأخبار التي ذكرت نماذج لها في هذا المبحث، ويقولون هي أساطير.

وابن خلدون وطائفة من الباحثين يرون أنَّ الساحر استطاع أن يؤثر في القوى المتخيلة للآخرين، فيجعلهم يرون الشيء على غير حقيقته وقد سبق نقل أقواله في هذا الموضوع.

وعندي تفسيران آخران: الأول: أن بعض ما يشاهده الناس هو مخترعات علمية لم يدرك الناس سرّها في ذلك الوقت، وقد اقتربنا اليوم من التوصل إلى مثل هذه الأمور، وكادت أن تصبح أمورا لا تثير غرابة. إن السينما والتلفاز اليوم تقومان بأداء أدوار في عالم الواقع كانت تعدُّ في الماضي من السحر العظيم الذي لا يأتي به إلا ساحر كبير.

فماذا لو كان عند الشياطين علم متقدم في هذا المجال يرى الناس البيوت والجنات والبساتين والأنهار والنساء الجميلات وهم جلوس في أمكنة خالية، فإذا انقطع البث يجدون أنفسهم في بيت موحش لا أنيس به، ولا جنات.

لقد توصل البشر اليوم إلى عرض الأفلام في الهواء من غير شاشة سينمائية، وذلك بتجسيم المناظر المشاهدة في الفضاء، وأصبح بالإمكان أن يعرض المنظر بكل أبعادة بحيث يُشَاهَد المنظر المصوَّر من كلِّ الزوايا، لأنه صور في ان واحد من كل الجهات بآلة تصوير لها القدرة على التصوير على هذا النحو.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة: ص٩٧٢.

وقد نشرت وكالات الأنباء في الأيام التي عاد فيها الخميني إلى إيران بعد استيلائه على الحكم أنَّ صورة الخميني ظهرت على القمر في سماء طهران، ورآها مئات الألوف في تلك الليلة، ولاشك أنَّ هذا الذي رأوه هو من هذا النوع الذي صورت فيه صورته بتلك الطريقة العلمية التي ذكرناها. والتعليل الثاني لبعض هذه الوقائع أنَّ الشيطان أو الشياطين تمثل للرائي الصورة والمرئيات التي يراها[1]، وتقوم هي بدور خداع الإنسان والضحك عليه.

ونحن نعلم ـ بما علمنا ربنا في كتابه ورسولنا في سنته ـ أن الشيطان لديه القدرة على أن يتشكَّل في صورة إنسان ما، حتى يخيل لرائيه أنه هو، وقد يتحرك حركة سريعة لا يستطيع البصر ملاحقتها، حتى تبدو للإنسان معجزة خارقة.

وفي ظني أن غالب السحر يقع على هذا النحو، فالذي يريك أنه أعاد إلى الحياة إنسانا أو حيوانا قد قتل وفارق رأسه جسده هو كاذب في زعمه أنه أحياه، ولكنك ترى رأسه قد ركب في جسده، وقد ينطق ويتكلم، وحقيقة الأمر أن الشيطان جمع رأسه إلى جسده، وحلَّ به هذا الشيطان، وحرك لسانه على نحو ما، فتظن أن الميت هو المتحدث.

وقد يتمثل الشيطان في صورة الإنسان القتيل، ويقوم ويمشي ويتحرك، ويأكل ويشرب.

وقد يتلبس الشيطان بالحيوان وينطق من جوفه فيظن السامع أن الحيوان هو الذي ينطق ويتكلم.

وقد تبعد الشياطين الحيوان بسرعة خارقة لا تدركها عيون البشر، ثم يتمثل الشيطان مكانه في صورة إنسان، أو يبدل الحيوان القتيل بحيوان آخر حي.

---

(١) راجع في تمثل الجن والشياطين كتابنا «عالم الجن والشياطين»

إن الذي نجزم به أنّ للجانّ قدرة لا يستطيعون تجاوزها، والساحر الذي يستعين بالشياطين لا يمكن أن يبلغ بسحره فوق القدر الذي تبلغه قدرة الثقلين، وكلُّ الذي يحدث في مثل هذه الأحوال خدع وتمثيل وتخييل، والحقيقة كلها بخلاف ما رأى الرائي وسمع السامع.

ومثل هذا يقال في الإخبار بالغيوب، فإذا كانت الأمور المسؤول عنها وقعت وانقضت فإنَّ الجنَّ قد تجيب عنها وتخبر بها، وقد تخطىء في ذلك.

أما المستقبل فلا يعلمون عنه شيئا، وما يخبرون به عن حدس وتخمين، أو هو مما استرقته الشياطين من الملائكة، قبل وقوعه في الأرض، وفي هذه الأخبار التي تأتي بها عن وقائع المستقبل كذب كثير كما سيأتي بيانه.

فإن قيل: أتنفي أن يكون للساحر أي فعل في تحقيق السحر الذي يقوم به؟ وكيف تفسر وقوع السحر عندما يلجأ الساحر إلى النفخ أو النفث، أو مخاطبة الكواكب والنجوم، أو ذبح الطيور والحيوانات ونحو ذلك؟

الجواب: أنَّ الساحر قد يكون له فعل في بعض الأحيان، فعندما يريد أذيّة شخص ما وايقاع الضرر به تتكيف نفسه بالخبث، فإذا نفث في هذه الحال بعد أن استدعى الشيطان اتحّدت نفسه مع الشيطان فكان الإضرار.

يقول ابن القيم: «والنفث فعل الساحر. فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي»[1].

(١) التفسير القيم: ص٥٦٣.

أما وقع السحر عند تلفظ الساحر بألفاظ معينة أو ذبحه بعض الطيور والحيوانات أو مخاطبة الساحر للكواكب ونحو ذلك فسر هذا أنَّ الساحر يرضي الشيطان بأفعال وأقوال شركية كفرية، فيفعل ما يريده الساحر أو بعضه من إذاية الناس وإيقاع الضرر بهم، وأما دعوى السحرة أنَّ الكواكب لها روحانية تعقل وتفقه فإنه دجل وكذب يبغون من وراءه ستر كفرهم وشركهم.

يدلك على هذا أنَّ الساحر الذي يزعم أنه يستعين بروحانية الكواكب لا يتحقق مراده إلا إذا أوقد بخورا خاصا، ولبس لباسا خاصا، وربما تقدمت منه أفعال خاصة منها ما هو محرم بالشرع كاللواط، ومنها ما هو كفر صريح، وكذلك الألفاظ التي يخاطب بها الكواكب منها ما هو كفر صريح، فيناديه بلفظ الألوهية ونحو ذلك، ومنها ما هو غير محرم على قدر تلك الكلمات الموضوعة في كتبهم[1].

---

(١) الفروق: ٤/١٤٨.